

(نعم) للتوبة واللجوء إلى الله، (لا) للدماء والغفلة والتقصير

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله ﷺ

أيها الناس، نعم للتوبة

لو تتبعنا حالنا منذ اندلاع الثورة إلى الآن، لتعجبنا من أنفسنا، ولوجدنا أن كثيرا منا يسير بالضبط على غير مراد الله ﷻ، فنحن نمر بمشاكل وتقلبات في الحياة السياسية، والاقتصادية، والاجتماعية، حتى مرت بنا المصائب، والكوارث من قتل، وتخريب، وضياع، وغير ذلك، وبالإجماع نعلم أن هذا من ذنوبنا؛ لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ مَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُمْ بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ فلم نرجع، ونعلم أن الله قال: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ﴾ فلم نُغَيِّرْ، نعلم أنه: "لَمْ يَنْزِلْ بَلَاءٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَّا بِذَنْبٍ، وَلَا يُكْشَفُ إِلَّا بِتُوبَةٍ" فلم نتب، وتعدينا كثيرا، وقصرنا كثيرا، وغفلنا كثيرا، حتى عبادتنا فيها من الضعف الكثير، ومعاملتنا فيها من الاعوجاج الكثير، لم نلجأ إلى الله تعالى حق اللجوء حتى مع هذه المحن التي تمر بنا، فالكافرون أفضل من بعضنا في هذا الباب، يقول تعالى على الكافرين: ﴿حَتَّىٰ إِذَا كُنْتُمْ فِي الْفُلِكِ وَجَرَّتِ بِكُمْ بَرِّيْحٌ طَبِيبَةٌ وَفَرِحُوا بِهَا جَاءَتْهَا رِيْحٌ عَاصِفٌ وَجَاءَتْهُمْ أَمْوَالٌ مِّنْ كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾، ضاعت العراق فلم نحتز، وحدثت المصائب في بلادنا الإسلامية فلم نعبأ، حدث ما حدث في بلادنا فغفلنا، ومن يهتز منا، أو يعبأ، أو يلجأ إلى ربه، سريعا ما يعود إلى غفلته مرة أخرى.

فإذا كنا نعلم قوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مَخْرَجًا﴾، وقوله: ﴿وَمَنْ يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَلْ لَهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾، وقوله: ﴿يَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَنْ تَنْقُضُوا اللَّهَ لَكُمْ فُرْقَانًا﴾؛ إذن فعلينا بالتقوى في أنفسنا، وفي عبادتنا، وفي معاملتنا حتى يفرج الله عنا الهم، والغم، ويرينا الطريق القويم، وإن كنا نعلم أن الصحابة رضي الله عنهم هُزِمُوا في غزوة أحد وفيهم رسول الله ﷺ بسبب معصية بعضهم، فالمسلمون وقتها هزموا، ولكن انتصر الإسلام بمبادئه، وقيمه، وأحكامه؛ لأن القاعدة تقول: ﴿إِنْ نَصَرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ﴾، فالمبدأ واحد مع كل المسلمين أيا كانوا، فعلينا إذن أن نترك المعاصي بكل استطاعتنا، وكل منا يعلم ما تقتضيه يداه.

وإذا كنا نعلم أن المسلمين كادوا أن يهلكوا في غزوة حنين عندما اغتروا بكثرتهم ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾؛ إذن فعلينا ألا نغتر بالحشود والكثرة، بل نحمد الله على هذه النعمة، ونتيقن أن النصر من عند الله ﷻ، حتى ولو كنا قلة ﴿كَمْ مِّنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾.

أيها المسلمون، لا للدماء

ديننا يدعو إلى التراحم، والتواد، وحرمة الدماء، فمن أجل حرمة الدماء والأنفس جاءت الشريعة كلها، وأنزلت الكتب، وبعث الرسل؛ كل ذلك لحفظ هذه النفس التي خلقها الله ﷻ، يقول تعالى: ﴿وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا

وَعَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿١٣﴾ ، ويقول: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا ضَرَبْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَتَيَّنُوا وَلَا

تَقُولُوا لِمَنْ ءَلْفَىٰ إِلَيْكُمْ ءالسَّلَامُ لَسْتَ مُؤْمِنًا ﴿١٤﴾ ، فمجرد إلقاء السلام يعصم الدم، فديننا لا يتشوف إلى الدماء، وإذا تدبرت معي الآيات والأحاديث تجد ذلك حتى مع الكفار، فما بالك مع المؤمنين؟!

فها هو رسولنا ﷺ يُؤذَى، ويرسل الله له ملك الجبال، فيقول للرسول ﷺ: "وَقَدْ بَعَثَنِي رَبُّكَ إِلَيْكَ لِتَأْمُرَنِي بِأَمْرِكَ، فَمَا شِئْتَ، إِنْ شِئْتَ أَنْ أُطَبِّقَ عَلَيْهِمُ الْأَخْشَبِينَ، فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: بَلْ أَرْجُو أَنْ يُخْرِجَ اللَّهُ مِنْ أَصْلَابِهِمْ مَنْ يَعْبُدُ اللَّهَ وَحْدَهُ لَا يُشْرِكُ بِهِ شَيْئًا" ^١، وها هو سيدنا نوح ﷺ، امتنع عن الشفاعة يوم القيامة؛ لأنه دعا على قومه بالهلاك ^٢.

عباد الله، الأصل في الدماء الصيانة، فالمسلم محفوظ دمه بإيمانه، والكافر بأمانه

يقول ﷺ: "لَنْ يَزَالَ الْمُؤْمِنُ فِي فَسْحَةٍ مِنْ دِينِهِ، مَا لَمْ يُصَبْ دَمًا حَرَامًا" ^٣، ويقول ﷺ: "أَوَّلُ مَا يُقْضَى بَيْنَ النَّاسِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِي الدَّمَاءِ" ^٤.

وها هو سيدنا الحسن رضي الله عنه أطلق النبي ﷺ السيادة عليه؛ لأنه أصلح بين ففتين، وحنن الدماء، وسمي هذا العام بعام الجماعة، قال ﷺ: "ابْنِي هَذَا سَيِّدٌ، وَلَعَلَّ اللَّهُ أَنْ يُصْلِحَ بِهِ بَيْنَ فِتْنَتَيْنِ مِنَ الْمُسْلِمِينَ" ^٥.

ونلاحظ رغبة الشرع في حفظ الدماء، حتى في الحدود، فحد الزاني المحصن هو الرجم، لا يكون إلا بشروط شديدة، إن لم يعترف؛ حفظا على دماء المسلمين، وحتى عند دفع الصائل الذي يعتدي عليك، لا تدفعه بالقتل مباشرة، بل يلزمك أن تدفعه بدون ذلك، إن كان ذلك يدفعه، وكذلك في حد الردة، فإن المرتد لا يقام عليه الحد إلا بعد مناقشته، وإقامة الحجة عليه، واستتابته.

وحتى مع الكافرين، يتشوف الشرع لحفظ دمائهم، فمن وصايا أبي بكر رضي الله عنه في الحروب: "لَا تَقْتُلَنَّ امْرَأَةً، وَلَا صَبِيًّا، وَلَا كَبِيرًا هَرِمًا، وَلَا تَقْطَعَنَّ شَجَرًا مُثْمِرًا، وَلَا تُخْرِبَنَّ عَامِرًا، وَلَا تَعْقِرَنَّ شَاةً، وَلَا بَعِيرًا، إِلَّا لِمَا كَلَمَلَهُ، وَلَا تَحْرِقَنَّ نَحْلًا، وَلَا تُعْرِقَنَّه، وَلَا تَغْلُلْ، وَلَا تَجْبُنْ" ^٦، وكانوا يؤمرون ألا يعتدوا على كافر يكفر في صومعته.

وفي صلح الحديبية مع كفار مكة، وقد سماه الله "فتحنا ميينا"، حققت فيه دماء المسلمين ودماء الكافرين.

وفي أسرى الكفار، قال تعالى: ﴿ حَتَّىٰ إِذَا أَنزَلْتُمْهُمْ فِئْءًا مِّنَ الْأَنْفَالِ فَمَا مَنَآءٌ بَعْدَ وَإِنَّمَا فِدَاؤُهُمْ ﴾، فلم يذكر الله القتل، وبدأ بالمن قبل الفداء.

وعن أسامة بن زيد قال: "بَعَثَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ إِلَى الْحُرَقَةِ مِنْ جُهَيْنَةَ، فَصَبَحْنَا الْقَوْمَ فَهَزَمْنَاهُمْ، وَلَحِقْتُ أَنَا وَرَجُلٌ مِنَ الْأَنْصَارِ رَجُلًا مِنْهُمْ (وكان هذا الرجل شديد الكفر والعداوة، وكان قويا، ويقتل المسلمين قتلا شديدا)، فَلَمَّا غَشِينَاهُ، قَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَكَفَّ عَنْهُ الْأَنْصَارِيُّ، فَطَعَنَتْهُ بِرُمْحِي حَتَّى قَاتَلْتُهُ، فَلَمَّا قَدِمْنَا بَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيِّ ﷺ، فَقَالَ لِي: يَا أُسَامَةُ، أَقَاتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنَّمَا كَانَ مُتَعَوِّذًا، قَالَ: أَقَاتَلْتَهُ بَعْدَ مَا قَالَ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، فَمَا زَالَ يُكْرِرُهَا عَلَيَّ، حَتَّى تَمَنَيْتُ أَنِّي لَمْ أَكُنْ أَسَلَمْتُ قَبْلَ ذَلِكَ الْيَوْمِ" ^٧، فقد نهر النبي ﷺ أسامة رضي الله عنه، ولم يقتص النبي ﷺ منه لشبهة التأويل.

أيها المسلمون، الدماء الدماء، فلنحذر في هذه الفترة الراهنة وفي كل وقت من سفك دمائنا، ولنسأل أنفسنا: من هو الخصم؟ إنه أخوك المسلم المعصوم الدم، أو غير مسلم مستأمن، أمَّنه الله ورسوله ﷺ، فلنتق الله، ولنحفظ دماءنا.

^١ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٢٣١)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٧٩٥) واللفظ له.

^٢ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٤٧١٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٩٤).

^٣ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٦٢).

^٤ رواه مسلم رحمه الله في صحيحه (١٦٧٨).

^٥ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٣٦٢٩).

^٦ موطأ مالك رحمه الله (٦٣٥/٣)، وقال البيهقي رحمه الله في السنن الصغير (٣٨٧/٣): مرسل.

^٧ رواه البخاري رحمه الله في صحيحه (٦٨٧٢)، ورواه مسلم رحمه الله في صحيحه (٩٦).

من أراد المزيد، فليرجع إلى محاضرة حرمة الدماء للدكتور/ محمد عبد العزيز أبو النجا

موقع جمعية الترتيل للخدمات الثقافية والدينية

www.al-tarteel.com

أو قناة جمعية الترتيل على موقع youtube

www.youtube.com/user/altarteel

أو صفحة جمعية الترتيل على موقع facebook

www.facebook.com/altarteel?ref=hl